# إلياس الصيّاح وما بعده!..

منذ أربعين ربيعاً وأكثر، تنادى أناس من مدينة جبيل إلى عقد اجتماعات ودّية وثقافية، وجلّهم من محبّي العميد ريمون إده والراغبين في صون كرامة الإنسان ورفع شأن الإعلام والآداب، في مكتبة إلياس صيّاح الجبيلية.

سرعان ما انضممت إلى المجموعة نتجاذب معاً أطراف الحديث حول آمال وأمانٍ كثيراً ما ذهبت أدراج الرياح، على الرغم من ان عمل مجموع النّاس، في بلاد النّاس، فوق عمل الفرد أهمية، ولأنّ مقررات النخبة الواعية من أبناء الأمة، إنما تكون نتيجة بحث ودرس وتمحيص وتبادل آراء، واحتكاك فكري كثيراً ما يحل عقد المشكلات، ويؤدّي إلى الهدف المأمول.

لم يرم المهندس طانيوس زعرور ومختار مخاتير جبيل وديع أبي غصن والمربّي ميشال فرح وسواهم، من الاجتماعات العفوية، إلى التبجّح بمعلومات أو الدعاية الرخيصة للذات بل الى تبادل نظريات وأفكار وذكريات شأنها أن تؤدّي إلى نتائج نافعة ولو بعد حين!

إلياس الصيّاح الذي يفتخر بكاثوليكيته المتأصّلة الموروثة عن أبيه خليل، تراه لم يفتح مكتبة لبيع الصحف والقرطاسية وحسب ولكنه تجلّى على جانب كبير من الثقافة والخبرة وفاخر بان اشبينه هو عميد «النهار» غسان تويني... لم ينطوِ يوماً على نفسه وينكمش في زوايا عزلته ومركنتيليته لا شك انه يتغنّى بأمجاد قديمة دارسة وأحلام ذهبية زائلة. ولكنه تعقّل في إطار من ثقافته المكتسبة من مدرسة الحياة، واتخذ من الماضي مواعظ بليغة، وأدرك أكثر من بعض الادعياء المدّعين ما عرفه تاريخنا الحديث من فصول إهمال وتراخٍ وانغماس في التفاهات والنزاعات الباطلة بل القاتلة.

خلال أحداثنا الأليمة زرته غير مرّة آتياً من جونيه ثم بعدها في جبيل على وجه شبه موصول لاستعراض الصحف والإطلاع على ما يكتبه صحافيونا. دفعت وقتها إلى كبريات الصحف مقالاتي شبه اليومية بواسطة «المرتجع» من الصحف لديه. وتمكنت من خلال مكوثي اليومي في ملتقاه أو المقاهي، أن أقف على اعراض عللنا المختلفة في ضوء المنطق والصراحة، واحتكاك الآراء خير الوسائل الموصلة إلى إيجاد الداء ووصف الدواء.

إلياس الصيّاح حكواتي دأب في سرد القصص الجبلية وسواها، تحتشد النخبة حوله وكذلك بعض الزبائن العابرين، لا يكتفي بسرد أحداث قصصه بتفاعل دائم مع جمهوره، بل تدفعه حماسته إلى أن يُجسّد دور شخصياته الواقعية التي يحكي عنها بالحركة والصوت. وما يميّزه الاستطراد وتلك النفحة من القيم والفضائل، ممّا يغذّي نفوس محاوريه وعقولهم على عكس ما تضخّه محطات فضائية ومقاهي الانترنت من عادات غريبة ومنفّرة. وليت بعض مسؤولينا قصدوا مكتبته للاستماع إليه وإلى محاوريه. لقاءاته ليست للتسلية وارتشاف القهوة الصباحية وحسب وإنما هي وسيلة تثقيف وترسيخ قيم وأخلاق تحلّى بها كبار من عندنا عبر التاريخ.

يتحدّث إلياس «الحي» على الدوام بالبطولة في زمن الجبن والمروءة في زمن الارتهان ونصرة المظلوم في زمن استغلال الضعفاء والكادحين من الشرفاء العقلاء... وإذا ما غادرته على حين غرّة لم يقطع حديثه بل يحرص على أن يعد باستمرار الحديث ويجعلك تتشوّق إلى سماع بقية الأحداث المتداخلة عنده.

يقفل إلياس على مضض مكتبته الجبيلية في منتصف شهر حزيران، فهل يلحق به محبّوه ومحاوروه الكثر إلى بيته ليطمئنوا إلى ان الحياة لا تزال تنبض بالحياة؟.. هل ينسى أو يتناسى النّاس تدريجياً التأثير البالغ الذي يضطلع به النقاش الهادئ الهادي والكلمة الفاعلة في كل أبعادها، لأنهما يشاركان أكثر من سواهما من تقنيات مستجدّة في بثّ الإنسان روحه النقدية البنّاءة؟ كيف ترانا نرضى بأن نفقد خصوصياتنا وكرامتنا والغيرية التي تكاد كلها فقدناها لتقنية اللاورقية والأناوية البغيضة؟

مع إقفال «مكتبة صيّاح» تنطوي صفحة كبرى، ولكن هل يغلق يوماً ما الكتاب برمّته أو تقفل أبواب الحوار والتحاور الودّي؟ صحافتنا تنوء بكثير من الأعباء الثقيلة، وتشكو كثيراً من العلل الخطرة، فإذا لم نتداركها، ولم نَذُدْ عنها، ولم نحرص على مكانتها وسمعتها، زادت ضعفاً وانحطاطاً، وأمست في عداد المهن الوضيعة، التي لا يُحفل بها، ولا يلتفت إليها، ولا يحترم أصحابها.

هنيئاً للصديق الصدوق بتقاعد مستحقّ إلى جانب شريكة حياته «جيزيل» وما اجزل الله عليهما من أبناء وحَفَدة. جئت أؤدّي أمانة في قلبي وأقدّم قرباناً على مذبح «جهادك» فتكرّم بقبوله مرفوعاً بعاطفة عارمة عامرة وإلى سنين مديدة.

أنا «نعمان» بصداقتك بين لفيف أهلك ومحبّيك وكفى!

**د. جهاد نعمان**

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه